الفلوجة...أولا وأخيرا!

21-2-2005

الاستراتيجية الفاشلة في الفلوجة تكررت في العديد من المدن العراقية مثل سامراء، والنجف، والرمادي، الأمر الذي وضع القوات الأمريكية في مأزق، أصبحت معه عاجزة عن مواجهة الهجمات المستمرة من جانب رجال المقاومة في المدن العراقية وعلى الطرق الرئيسية، وحتى داخل المنطقة الخضراء بوسط بغداد، مما دفعها إلى إلقاء مسئولية أحداث العنف التي تجري في جميع أنحاء العراق على عاتق "الزرقاوي

بقلم عبدالله صالح

أصبحت القوات الأمريكية قاب قوسين أو أدنى من اقتحام مدينة الفلوجة، التي تعرضت لقصف جوي متواصل خلال الأسابيع الماضية..واليوم يتحدث القادة الأمريكيون علانية عن قرب تنفيذ ما يسمونه بالهجوم الكبير على الفالوجة، فقد كشف "جيلبرت لي"، أحد كبار الضباط في البحرية الأمريكية لـ "السي إن إن" عن أن الهجوم على الفالوجة سيشكل نقطة فاصلة فيما يتعلق بمستقبل العراق، مشيراً إلى أن العملية التي تجري الاستعدادات لها الآن تستهدف سحق المدينة والقضاء على المقاومة بها، بما يؤمن إجراء الانتخابات العراقية المقبلة في أمن وسلام، ويفتح الطريق أمام العراقيين لانتخاب حكومتهم في حرية وممارسة حياتهم السياسية في مناخ ديمقراطي.

قد يكون جيلبرت متفائلاً أكثر من اللازم..فالهجوم الذي شنته الولايات المتحدة على المدينة في إبريل الماضي، وأسفر عن مقتل 800 عراقياً (600 منهم مدنيين) لم يؤد إلى انخفاض في مستوى أداء رجال المقاومة بالمدينة، بل على العكس، فقد تصاعدت المقاومة بصورة أكبر، وزاد الدّعم المقدم لها من جانب الأهالي من المدنيين، وقد يسفر الهجوم الأمريكي المرتقب عن نتيجة مشابهة.

إن إدارة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش مصممة على تنفيذ هجوم جديد على المدينة، دون أن تقوم بإعادة تقييم لقواتها العسكرية واستراتيجيتها السابقة التي فشلت في الفلوجة وغيرها من المدن العراقية. لقد أدت العمليات العسكرية الأمريكية وهجمات بعض الجماعات المسلحة إلى مقتل أكثر من 3040 عراقيا، في الفترة من إبريل إلى سبتمبر 2004 طبقًا لبيانات وزارة الصحة العراقية. وبغض النظر عن العدد الحقيقي للقتلى، فإن تزايد معدلات العنف قد أدى إلى تعميق الكراهية في نفوس العراقيين تجاه الولايات المتحدة.

وبدلا من تهدئة الأوضاع والعمل على الوصول إلى حلول وسط مع رجال المقاومة، لجأت إدارة بوش إلى تصعيد العنف ضد المدن العراقية، وإلقاء مسئولية تدهور الأوضاع على عاتق المقاتلين الأجانب، وعلى رأسهم أبو مصعب الزرقاوي الأردني الجنسية، على الرغم من تأكيد معظم المحللين على أن الهجمات التي تشن ضد القوات الأمريكية يقوم

بها رجال المقاومة العراقية أنفسهم.

ولعل أبرز ما يفسر تصلب وعناد الإدارة الأمريكية تجاه المقاومة العراقية هو رغبتها المحمومة لإدخال العراق ضمن إطار الحرب المزعومة التي تخوضها ضد ما يسمى بالإرهاب، كما أن من الصعب بمكان أن تلجأ الإدارة الأمريكية إلى التفاوض مع رجال المقاومة قبيل إجراء الانتخابات الرئاسية الأمريكية. ومع ذلك، فإن المشكلة يبدو أنها أعمق من مجرد جمود أيديولوجي لدى الإدارة الأمريكية، فالحقيقة أن قلة داخل الولايات المتحدة هي التي تهتم بمدى أخلاقية أو فائدة الاستخدام لمفرط للقوة ضد المدن العراقية، وتطالب بالبحث عن بديل آخر .. جون كيري نفسه هاجم إدارة بوش بسبب عدم حزمها في التعامل مع المدن العراقية "المتمردة".

عجز الولايات المتحدة عن فرض سيطرتها العسكرية على المدن العراقية يسبب حرجا شديداً لبوش وقلقا للعديد من قوى المعارضة في الولايات المتحدة، فبغض النظر عما يتيحه غزو العراق من مميزات للولايات المتحدة، فإن واشنطن لا يمكن أن تتحمل خسارة الحرب في العراق، وتعتبر الإدارة الأمريكية أن هزيمة المقاومة هي الخطوة الأولى لتحقيق النصر في العراق، ولذلك فإن إخضاع مدينة الفلوجة يشكل هاجسا يؤرق الرئيس بوش، باعتبار أن ذلك يعد خطوة هامة لتأمين إجراء الانتخابات العراقية في يناير، وتحفيز العملية السياسية هناك.

ولاشك أن مثل هذا التغيير المنشود في العراق يتطلب كسر حاجز العداوة الذي ترسخ على مدى 16 شهرا من العنف والدمار. لقد أدى هجوم أبريل الماضي على الفلوجة إلى تصاعد حجم الرفض العراقي والعربي للوجود الأمريكي في العراق، خاصة مع سقوط عدد كبير من الضحايا المدنيين خلال هذا الهجوم، وصمود المقاومة العراقية في الفالوجة أمام القوات الأمريكية وتلقينها درسا قاسيا، حيث أصبح العرب يرون فيما يحدث في العراق نسخة مكررة مما ترتكبه إسرائيل في الأراضي الفلسطينية.

وفي الوقت الذي كشفت فيه المقاومة الباسلة لرجال الفلوجة حدود القوة الأمريكية ومدى قدرة آلة الحرب على حسم المعركة، تزايدت المعارضة لسياسة بوش تجاه العراق داخل الولايات المتحدة، ليس فقط من جانب الرأي العام أو المعارضة السياسية، بل من جانب كثير من قيادات الجيش الأمريكي. الجنرال "جيمس كونواي" الذي كان مسئولاً عن الفيلق البحري غربي العراق في أبريل الماضي، أعلن عن معارضته المتأخرة لعملية غزو الفلوجة في سبتمبر الماضي قائلاً: "عندما قمنا بمهاجمة الفلوجة بكل قسوة، أعتقد أننا بالتأكيد قد زدنا من كراهية الشعب العراقي والعرب وخسرنا تأييد الرأي العام العالمي لسياستنا في العراق".

الاستعدادات لاقتحام الفلوجة تجري بكثافة شديدة، حيث تحتشد آلاف القوات الأمريكية بالقرب من المدينة، بالإضافة إلى 850 جنديا بريطانيا تم استدعاؤهم من جنوب العراق لمساندة القوات الأمريكية. العشرات من المخابئ "الإرهابية" المزعومة دُمرت بالطائرات الحربية الأمريكية في الأسابيع الأخيرة، ورغم ما تعلنه القوات الأمريكية عن دقة قصفها لهذه المواقع، فإن هذه الهجمات الجوية أسفرت عن تدمير عشرات المنازل، وقتل مئات الأطفال والنساء والشيوخ.

الاستراتيجية الفاشلة في الفلوجة تكررت في العديد من المدن العراقية مثل

سامراء، والنجف، والرمادي. ومع ذلك يتفاخر وزير الدفاع دونالد رمسفلد بأن الولايات المتحدة قتلت في شهر واحد أكثر من 2500 من رجال المقاومة العراقية، وهو لا يدري أن الولايات المتحدة بذلك تخلق من الأعداء أكثر مما تقتل، وتثير حمية أقارب القتلى العراقيين وذويهم للثأر لهم من القوات الأمريكية.

نتيجة للحلقة المفرغة للعنف في العراق تزايدت أعداد رجال المقاومة العراقية وتنظيماتهم المسلحة في معظم المدن العراقية، كما تزايد عدد المتعاطفين معهم، الأمر الذي وضع القوات الأمريكية في مأزق، أصبحت معه عاجزة عن مواجهة الهجمات المستمرة من جانب رجال المقاومة في المدن العراقية وعلى الطرق الرئيسية، وحتى داخل المنطقة الخضراء بوسط بغداد، مما دفعها إلى إلقاء مسئولية أحداث العنف التي تجري في جميع أنحاء العراق على عاتق "الزرقاوي" زعيم لجماعة "التوحيد والجهاد" والذي رصدت واشنطن 25 مليون دولار لمن يدلي بمعلومات تساعد في القبض عليه، كما دمرت مئات المنازل والمنشآت المدنية على من فيها من المدنيين، بدعوى أنها معسكرات يختبئ داخلها.

ورغم حرص معظم الأمريكيين على متابعة أخبار العراق من التلفاز، فإنهم لا يعيرون اهتماماً لتزايد عدد الضحايا العراقيين من المدنيين، والمغالاة من جانب القوات الأمريكية في قصف المدن وتدميرها، فما يشغلهم هو مدى نجاح القوات الأمريكية في تحقيق النصر، وحجم القتلى من الأمريكيين. أما الجوانب الأخلاقية للحرب فهي آخر ما يفكر فيه الأمريكيون.

لقد اعتمدت الاستراتيجية الأمريكية على القصف العنيف للمدن والمناطق المكتظة بالسكان واستبعاد رجال المقاومة والمعارضين من المشاركة في العملية السياسية، وفي الوقت الذي تجري فيه الاستعدادات لانعقاد المؤتمر الدولي بخصوص العراق في شرم الشيخ في الفترة من 22-23 نوفمبر، فإن القوات الأمريكية تقوم باعتقال العديد من رجال المقاومة، وشيوخ القبائل، والزعماء الدينيين، وتصعد من هجماتها على المدن العراقية، في محاولة للسيطرة عليها وكسب جولة من جولات القتال ضد المقاومة، بما يعزز موقف الرئيس بوش أمام منافسه جون كيري في معركة الانتخابات الرئاسية التي بدأ العد التنازلي لها.

للعودة للأعلى